نظام الحكم في الإسلام

خطة الحسبة

بقلم فضيلة العلامة سيدى عبد الله كنون
الامين العام لرابطة علماء المغرب

هى احدى الخطط اى الولايات فى نظام الحكم الاسلامى ، ماخوذة من الاحتساب بمعنى حسن التدبير والنظر فى الامر ، كما فى القاموس وصاحبها المحتسب ، وتسمى ايضا ولاية السوق لان اكثر نظر صاحبها فيما يجرى بالاسواق . من غش وخديعة وتفقد مكيال وميزان وما اشبه ذلك .

ولعل التسمية الثانية ترجع الى اصل تخطيطها . فقد ثبت ان النبى (ص) ولى سعيد بن العاص على سوق مكة ، وتوالى الامر على ذلك حتى اتسعت دائرة نظرها فشملت كل ما يحتسب فيه من أمر بمعروف ونهى عن المنكر فحينئذ استقرت تسميتها بالحسبة . قال الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية : « حاصل الحسبة امر بمعروف ظهر تركه ، ونهى عن منكر ظهر فعله . قال تعالى : (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية ، وهى فى حق غيره اى المحتسب فرض كفاية ، وايضا عليه ان يبحث عن المنكرات الظاهرة وعن ما ترك من المعروف الظاهر ، ويعزر فى ذلك ويتخذ عليه اعوانا ويعدى اليه فيه وليس ذلك لغيره وهى واسطة بين احكام القضاء واحكام المظالم) .

وظاهر من هذا انها وظيفة دينية دنيوية معا ، وليست وظيفة دينية فحسب ، كما عدها ابن خلدون . وهى فى ذلك مواكبة لفلسفة الدعوة الاسلامية التى تجمع بين الدين والدنيا ولاتفرق بينهما ، ومن ثم يقال ان الاسلام مصحف وسيف وعبادات ومعاملات ، ويخطىء من يقيسه على النصرانية التى فصلت الدولة عن الدين او على اى فلسفة تجعل الحكم بمجنبة من الاخلاق .

الحسبة فى السلم الوظيفى

الحسبة بما لها من اهمية فى المجتمع الاسلامى تاتى بعد ولاية المظالم وخطة القضاء فى السلم الوظيفى على صعيد المدن والاقاليم ، كما تشعر به عبارة الماوردى السابقة ، وكما كان عليه الحال الى قريب من منتصف القرن الراهن فى المغرب . ويبين اهميتها ما حظيت به من عناية الدارسين واهتمام الباحثين ، حتى خصت بالتاليف ، وكتبت فيها عشرات المؤلفات باقلام جهابذة العلماء من المشرق والمغرب ، متحدثة عن اختصاصاتها وصفات المحتسب وما الى ذلك ، الامر الذى لم تظفر به الولايات الاخرى ولا سيما ولايات (المظالم) و (الرد) الذى يعتبر بمثابة الاستئناف و (الشرطة) . ولعل السر فى ذلك يرجع الى شدة ارتباطها بمصالح الافراد والجماعات

وسهرها على الامن النفسى والعيش الرضى للمواطنين ، كما يتبين من اختصاصاتها ومجالات العمل فيها .

اختصاصاتها

وبحسب ما يذكره الفقهاء وما تضمنته كتب الحسبة فان كل ما يتعلق ببخس وتطفيف فى كيل او وزن وما يتعلق بغش وتدليس فى مبيع او ثمن وما يتعلق بمطل وتأخير فى دين او اجر ، هو من اختصاصات الحسبة ، وينظر فيه المحتسب عند الرفع اليه ويبث الحكم فيه اذا لم يتوقف الامر على اثبات. ثم هو ينظر نظرا عاما فى مصالح المدينة والسكان فيقمع المنتهكين للجرمات ويغير المنكرات ، ويحافظ على العوائد الحسنة ويأمر بالمعروف حتى اذا رأى صبيا تائها فان عليه ان يبعثه الى الكتاب او الى المصنع ويتفقد طرق الشوارع فيواخذ المكلفين بالتنظيف اذا اخلوا بواجبهم ويمنع شغل الطريق بما يعوق حركة المرور ويخفف الاثقال عن الدواب ويحبس الحيوانات الضارية التى قد تؤذى المارة كالكلاب وغيرها ، ويمنع رفع الاصوات بالغناء ، واطلاق اجهزة الاذاعة بكيفية تؤذى الجيران والعموم ، ويراقب المطاعم والاغذية المعروضة للبيع للاطمئنان على خلوها مما يضر بالصحة العمومية ، ويدخل الحمامات للتاكد من نظافتها واستعمال المآزر ، ويتفقد الصناع والحرفيين للحرص على سلامة اعمالهم من الغش والتدليس وكذا الجزارين والبقالة ، وما شابههم فيختبر بضائعهم وموازينهم منعا للخيانة والتطفيف ، وكذلك يتفقد اسواق الصاغة وباعة الحلى لضمان الامانة وعدم استغلال سذاجة النساء ورقتهن ماديا او خلقيا ، وكل ذوى الصنائع والحرف التى يحتاج اليها الناس يشملهم نظره ، ويتعين عليه عدم الغفلة عن ملاحظة احوالهم واعتنائهم بما فيه راحة زبنائهم والمتعاملين معهم سواء فيما يرجع للكفاءة المهنية او للامكنة والادوات التى يستعملونها من حيث الصلاحية وعدم الضرر .

التثمين والتسعير

اذا خيف من التلاعب بالاثمان نتيجة المضاربة فى السلع الاولية جاز للمحتسب ان يأمر بوضع الاثمان على السلع المطلوبة ومعاقبة من يخالف ذلك .

واما التسعير فقد ورد النهى عنه ولكن لغلبة الحرص على الناس اجاز الفقهاء التسعير بل طلبوه فى خصوص المواد الغذائية كالدقيق والزيت واللحم وما شابه ذلك ، رعاية للمصلحة العامة ، واشترطوا فيه اذن الامام العادل وجمع وجوه اهل السوق لهم ، نعم فى بعض الحالات كالاحتكار ونحوه يجب التسعير .

صفات المحتسب

اشترط الفقهاء فى المحتسب ان يكون فقيها قائما مع الحق نزيها عالى الهمة معلوم العدالة ذا امانة وحلم وتيقظ لا يستفزه طمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يعجل على احد حتى يعذر اليه .

بين الحسبة والبلدية

تصور بعضهم ان اختصاصات الحسبة هى اختصاصات البلدية ، وراوا ان فى اقامة البلديات غنى عن الحسبة وهو وهم باطل بما ذكرناه من سعة نظر المحتسب وشموله لمصالح الافراد والجماعات ، ومطالب الدين والدنيا ، فى حين ان مهمة البلدية مدنية محض ، وهى بعض من كل مما يهتم به المحتسب ، ثم ان المحتسب كما بينا حاكم يفصل فى كثير من الخصومات اليومية ، ولا كذلك البلدية ، ولا ينكر ان هناك تداخلا فى بعض وظائفهما ، ولكن البلدية بكل حال لا تغنى عن الحسبة ابدا ، وقد وجد فراغ كبير فى المجتمع المغربى بل الاسلامى على العموم بعد تعطيل سلطة المحتسب وحجب تصرفه الذى كان يجعل من المدينة فى عالم الاسلام مجتمعا فاضلا قريبا مما دعا اليه الحكماء وجاء به الانبياء ، وما يزال المصلحون ينادون به .

وغير خفى ان نظام البلديات نظام غربى منبثق من حضارة غير حضارة الاسلام التى تعطى للمعنويات اهمية كثيرة وتتحرك باعتبار ما يقتضيه شرع الاسلام من التوفيق بين مطالب الروح والجسد ، وذلك هو ما جعل مهمة المحتسب مزدوجة .

من تاريخ الحسبة

راينا ان نشأة الحسبة بدات على عهد النبى (ص)

وكان عمر فى ايام خلافته يقوم بها بنفسه ، واستمرت العناية بها من الخلفاء على اتم وجه ، وكانوا لا يولونها الا من توفرت فيهم شروطها من العلم والحزم والدين ، وممن وليها فى ايام الخليفة الهادى العباسى ، الامام نافع بن عبد الرحمن احد القراء السبعة ، وسار الامر على هذا المنوال فى المغرب ، ففى ايام الموحدين كان ممن وليها الفقيه الاديب الشاعر ميمون الخطابى ، فانا نجد فى ترجمته انه ولى حسبة الطعام بمراكش العاصمة .. وهذا يعنى انها تفرعت الى فروع منها حسبة الطعام . وفى ايام المرينيين كان شاعرهم عبد العزيز المازوزى ممن اسندت اليه وتقرا فى حوادث سنة 691 ان السلطان ابا يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق امر بجعل الصيعان على مد النبى (ص) وذلك على يد المازوزى .. وطارت للحسبة فى المغرب شهرة لكفاءتها وحسن تدبيرها ، جاوزت حدود الوطن الى بلاد المشرق ، كما تدلنا على ذلك حادثة الحاج المغربى الذى اودع ماله عند بعض التجار المصريين فجحده اياه ، وعظمت المصيبة على الرجل حتى كاد يفقد عقله وصار يطوف بالشوارع ويقول من لى بابن ماواس ؟ من لى بابن ماواس ؟ والناس لا يعرفون من امره شيئا ، ولا من هذا الذى ينادى باسمه ، وكان ابن ماواس محتسب فاس وهو ابن الموقت المشهور ابى العباس ابن ماواس ، وبقى الرجل على حاله حتى بلغ خبره ابن ماواس فاهتم بشأنه ، ورحل الى مصر واتصل به وعرف قضيته واحتال حتى استخرج الوديعة من التاجر الجاحد ، وابلغ امره الى السلطات المصرية التى عاقبته بما يستحق ورجع ابن ماواس والحاج المغربى الى ارض الوطن بعد هذه الرحلة الناجحة ، والمهمة الغريبة . والحكاية مذكورة بتفصيل فى كتاب الانيس المطرب للعلمى .

وذكر الشيخ ميارة انه كان يرى فى صغره بمكتب المحتسب رفوفا عليها كتب عديدة ، ولما سأل عنها قيل له انها مؤلفات فى احكام الحسبة ينظر فيها المحتسب ويستعين بها على مهمته .

فالامر كان جدا كما نرى ، والقضية تتعلق بخطة حكم ، تنتظم بها شؤون الاقتصاد والاجتماع والدين فى آن واحد ، ومن المؤسف ان يطغى عليها تيار الغزو الاجنبى فى العالم الاسلامى كله ، ذلك الغزو الذى انحسر تياره ماديا ولكن رواسبه المعنوية ما تزال قائمة تثير الشجون وتقذى العيون ، ولكن الامل فى جلالة الملك نصره الله وطيد فى اعادة هذه الخطة الى ما كانت عليه ، فهو الذى يستطيع ان يعيد المياه الى مجاريها مع ما تتطلبه الظروف الوقتية طبعا من التعديلات والاصلاحات .. والله ولى التوفيق .

عبد الله كنون